قرأت العدد الماضي من "الآداب"

بقلم

رجاء النقاش

ما هي ضرورة هذا الباب في « الآداب » ؟ أحب ان اجيب على هـذا السؤال في حدود ما افهمه من رسالة أية مجلة ادبية تظهر عندنا في هذه المرحلة من مراحل تطورنا الأدبي . فما لا شك فيه اننا نحس بنزوع جديد إلى تغيير مفاهيمنا عن الأدب والفكر ، ونسعى إلى إقرار مفاهيم اخرى تتوفر فيها صفتان رئيسيتان : أولاهما ان تكون هذه المفاهيم مستمدة من واقعنا الذي نعيشه حيث بدأنا نحس بما فيه من مشاكل تمسنا كأفراد ومجموعات ، وثانيتهما ان تستفيد هذه المفاهيم ، وهي في مرحلة التكوين ، من الاتجاهات المختلفة للادب العالمي حتى نستطيع السير مع هذا الأدب في خطوات متوازية .

فاذا كانت هذه هي رسالة « الآداب » كما افهمها ، فضرورة هذا الباب النقدي ، الى جانب انه مشاركة في خلق نقد لا يتخلف عن تطور الأشكال المختلفة للأدب العربي ، تتركز في تأييد المحاولات الفنية الجديدة التي تعمل على تحقيق رسالة المجلة ، ورصد نتائج الدراسات الممتازة التي يشارك اصحابها في تقدمنا بما يفتحون عليه اعيننا من حقائق . وهكذا يعتبر هذا الباب حافزاً طيباً للامكانيات الناضجة ، ورقيباً يحول دون تسرب اي عنصر يعوق تطورنا، سواء كان هذا العنصر مفهوماً يجرنا الى الماضي ، او مفهومـاً يدفع بنا الى الانحراف ، كما نرى في بعض الاتجاهات التي تتخذ من اشكال التعبير مجالاً لعرض مواقف جنسية مفصلة دون ان يرتبط هذا العرض بقضية انسانية ما .

وسألتزم فهمي لرسالة المجلة في تقدير ما قرأته ، وهو الفهم الذي شرحته في اول الموضوع ، كما اجب ان اشير الى انني حين اتحـدث عن بحث او قصيدة او قصة ، فأنا لا اعني الحديث عن كاتب او شاعر او قصاص ، فقد يكون هناك شاعر قرأت له من قبل وكان رأيي فيه غير رأيي في القصيدة المنشورة له بالعدد الماضي ، وهذه الحقيقة نفسها تنطبق على كتاب القصة والابحاث.

الغلاف :

اذا كان عنوان الباب هو « قرأت العدد الماضي » فأحب ألا تكون كلمة « قرأت » مانعاً من الاشارة الى اللوحة الممتازة التي ظهرت على غلاف العدد. فاللوحة تجسم لنا الجانب الانساني من مشكلة بارزة في المجتمـع العربي يمثلها المتعطل الذي يحمل امكانية الحياة في اداته، ومع ذلك فهو عاجز عن تحقيق امكانياته في عمل ما ، وبجانبه امرأته وطفله ، وقد بدا في اللوحة جو من أسى الابرياء الذين يطلبون الحياة ولا يدخرون جهداً في تأدية ما يفرضه عليهم الواقع من التزامات ، ولكن الواقع ينساهم فيصبحون موضوعاً لمأساة تعبر عنها اللوحة ولقضية يدافع عنها الفنان مصطفى فروخ .

الابحاث :

وكانت الأبحاث هي أرقى المستويات في العدد ، واول ما قرأته منها هو البحث الافتتاحي الذي كتبه الدكتور قسطنطين زريق عن المرحلة الأفضل التي ينبغي ان تصل اليها الثقافـة العربية ، وهو بحث ممتـاز توفر فيه للدكتور زريق اسلوب دقيق ووعي بتجارب كثيرة عاشها بعمق. واهم ما يميز البحث، هو ما وفق فيه الكاتب من النظر الى الثقافة على انها عنصر من حياتنا ككل ، لا على انها زاوية منفصلة عما في هذه الحيـاة من مشاكل إنسانية مختلفة تمس الفرد والمجموع ، كمشكلة الحرية التي تعرض لها الكاتب تعرضاً دقيقاً في اول بحثه ، والمشاكل الاقتصادية التي شاركت بالفعل في العمل عـلى هبوط الانتاج الثقافي في المجتمع .

على انني لا اوافق الدكتور زريق على ان « الانتـاج الحضاري هو ابداً من عمل الافراد » فان الفرد لا يمكن ان يكون له قيمة في التاريخ ، ما لم تكن المرحلة التاريخيـة التي يعيش فيها ، قابلة للتأثر به وتنمية ما يبذره فيها من قيم حضارية جديدة بالاضافة الى ان الفرد الذي يستطيـع ان يؤثر في واقعه ويغيره ، يتأثر دائماً في سلوكه بعنصر علاقته بالآخرين ، سواء كانت هذه العلاقة عامل دفع الى الأمام ، او عائقاً من العوائق، والآخرون هؤلاء هم مجتمعه . ولكي نفسر الحضارة ينبغي ان نقيم فهمنا على اساس التكامل بين الأفراد والمجتمعات الـتي يعيشون فيها ، والدكتور زريق نفسه يحس بهذه الحقيقة عندما يقول « فعلى المجتمع ان يكتشف هؤلاء الموهوبين ويرعاهم » .

ولم يكن من الطبيعي وقد اخذ الدكتور زريق في القسم الاول من بحثه يناقش مشكلة الثقافة ويعرضها على شكل تحليلي واقعي ، ان ينظر في القسم الاخير الى الثقافة نظرة مثالية فيقول انها « انبل واقدس وارفع من ان تكون وسيلة لغاية ... فهي غاية الغايات : لا يستهان بها بل تحترم، لاتستباح بل يركع على عتبتها» واذا كانت الشخصية الانسانية في نظر الدكتور زريق كما هي في الحقيقة « منطوية على امكانات الحرية والمسؤولية والكرامة » فمن الطبيعي ان نتخلى عن النظرة المثالية الرومانسيه اليها على انها وسيلة واعيـة قوية لتحقيق الشخصية الانسانية كما فهمها الدكتور زريق .

ولا اوافق الدكتور زريق ايضاً على قوله « ان التاريخ العربي مـلىء باخبار التجلة والرعاية التي كان يبذلها الخلفاء لأرباب العلم ومؤسساته » واعتبار هذا الموقف من الحكام « اسوة حسنة » لنا في الحاضر دون محاولة تفسيره . فالواقع ان التاريخ العربي يقدم لنا اكبر نموذج للنظر الى الثقافة لا على انها

وسيلة لتحقيق الشخصية الانسانية كما فهمها الدكتور زريق ، بل على انها وسيلة يومية يمكن استغلالها لتثبيت اوضاع كان اغلبها لايستحق البقاء . كان الحكام يقفون من الثقافة موقف الحكام المعاصرين من الصحافة ، يحترمونها لا عن اقتناع بوظيفتها في الحياة ، ولكن عن رغبة في الحصول على تأييدها امام الجماهير . واذا حاولنا تحليل ما يتضمنه مفهوم الثقافة العربية القديمة من عناصر لعرفنا ان العنصر الرئيسي فيها كان عنصراً دينياً ، ولتمكنا بعد ذلك من فهم اهتمام الحكام بالثقافة والذي كان الدافع اليه هو التأثير على الجماهير ، وهذا الحكم نفسه ينطبق على الثقافة الفنية ايضاً ، بالاضافة الى ان اللون الاخير من الثقافة ، كان نوعاً من التسلية والترف لا اثر له في دفع السلوك الانساني الى تحقيق اي عنصر من مفهوم الشخصية الانسانية .

لقد كان النظر المثالي المقصود الى الثقافة على انها شيء مقدس اكبر من الواقع الذي يعيشه الأفراد عاملاً من عوامل تفكك المجتمع العربي القديم فقد مكنت كثيراً من الحكام ان يستغلوا اهل الثقافة بما لهم من حرمة مفتعلة ، استغلالاً في غير صالح التقدم على الاطلاق . ولو فهمت الثقافة على انها وسيلة لتحقيق شخصيتنا الانسانية بما فيها من امكانات الحرية والمسؤولية والكرامة ، لتحول التاريخ العربي تحولاً كبيراً ولأصبحنا امام تراث انساني متسع لا ضيق كما هو الآن ومنفصل عنا بفواصل كثيرة — والواقع ان الفرق بين انماط الحضارة المختلفة هو نفسه الفرق الموجود في هذه الحضارات بين مفاهيم الثقافة وجوهر علاقتها بالشخصية الانسانية والسلوك الانساني .

اما بحث « الحركة الرومانسية في الأدب والحياة » فهو بحث متماسك يصفي فيه كاتبه الاستاذ ابراهيم شكر الله خلاصة قراءات ممتازة مع وضوح في شخصيته التي تتفاعل باستمرار مع الحقائق التي يعرضها . وكم كنت احب ان يربط الاستاذ ابراهيم شكر الله فهمه للحركة الرومانسية في الأدب والحياة ، بالأدب العربي والحياة العربية متحدثاً عن علاقتهما بهذه الحركة ، ومدى ضرورتها لهما .

والبحث القصير الذي ترجمته الآداب عن « بيير هنري سيمون » يتضح فيه صدوره عن كاتب عبر المرحلة التي يحاول نقادنا اليوم ان يدفعوا بالأدب العربي اليها ، وهي فهم الفن على انه ضرورة انسانية . فموضوع المقال هو الحديث عن ابطال الرواية باعتبارهم كائنات موجودة في الواقع وجوداً فعلياً ، وعلينا ازاء هذا الوجود ان نفكر في مشاكلهم وعلى رأسها مشكلة الحرية المتفرعة عن مشكلة اخرى هي علاقتهم بالفنان ... تماماً كمشكلة علاقتنا نحن بالله .

اما البحث الذي كتبه الأستاذ عبدالحق فاضل عن مسرحية « اهل الكهف » فهو بحث مختلط مضطرب . والسبب في ذلك هو انعدام وجود حالة فنية تدفعه الى دراسة المسرحية . فليس في ذهنه مفهوم يحدد الفن المسرحي ولا منهج يلتزمه مما أدى باحكامه الى لون من الخطابة والتخلخل ، إذ لا يوجد منهج او مفهوم يؤدي بكاتب ما الى الحكم على جزئيات مسرحية من حوار وشخصيات ومواقف وأحداث ، قبل ان يتعرض للتجربة الكلية التي خلقت المسرحية ولونت بقية العناصر المختلفة فيها ، وسأناقش حكماً واحداً من احكام الاستاذ فاضل وهو يعتبر نموذجاً للأحكام المختلفة التي اصدرها في بقية البحث . فهو يتحدث عن ختام المسرحية فيرى « ان المؤلف يعمد إلى شخوص روايته فيجمعهم واحداً واحداً ويعيدهم الى قرارة الكهف ولا ينسى ان يعيد معهم الكلب قطمير اكما في الاسطورة الدينية... كأنه لاعب الشطرنج يفرغ من اللعبة فيعيد حجارته إلى العلبة، ولكنه إمعاناً في التناقض لا يعيدهم لسبب ديني ، بل لسبب دنيوي ، هو ان كلا منهم خابت له أمنية فعاد إلى الكهف » ثم يستمر بعد ذلك في سخرية خطابية لا تتفق مع منطق البحث العلمي .

وفهم هذه الحالة التي يمر بها اشخاص المسرحية على هذه الصورة هو فهم سطحي . فرجوعهم الى الكهف لا يفسر الا بالغاية الكبرى لهذا الجزء من المسرحية وهي مشكلة التلاؤم مع الواقع او عدمه ، ورجوع الاشخاص الى الكهف لا يعني تماماً الا الفشل في التلاؤم مع الواقع الجديد بالنسبة لهم . وحالة رجوعهم الى الكهف هي حالة انسانية نجد لها نماذج متعددة في الحياة عامة والحياة الشرقية والمصرية على وجه الخصوص ، وهي حالة يمكن ان تسمى بحالة « الكهف » ، وترمز الى انسحاب الفرد من الحياة وعزل نفسه عن الواقع الخارجي حتى ينعدم احساس هذا الواقع به وذلك نتيجة لظروف عاش فيها الفرد وفشل بسببها عن ايجاد تكامل بينه وبين هذا الواقع . وكلما اقترب هذا التكامل من الفشل كلما أصبح الانسحاب من الحياة اشد ضرورة بالنسبة اليه . ومثل هذا التفسير يمليه التطور العام للمسرحية والربط بينها وبين شخصية المؤلف ، وبينها وبين الواقع المصري الذي نشأ فيه وتمثل روحه ، وفي هذا الواقع تكثر هذه النماذج ، ونستطيع ان نلمسها في مثل هذا العمل الفني الكبير ، لو فهمنا الفن في مختلف اشكاله على انه ارتباط وتفاعل مع واقع حيوي يعيش فيه الفنان . وعلينا ان نربط كذلك بين العمل الواحد وغيره من اعمال الفنان الاخرى حتى نتمكن من فهم فلسفته ازاء الحياة ، ثم فهم صراعه مع الاشكال الفنية المختلفة ليختار احدها كمجال لاستيعاب تجاربه وخبراته في الواقع الذي عاش فيه ، فمجرد اختيار الاسطورة مادة للمسرحية تختفي وراء اشخاصها فلسفة الفنان ، موضوع يحتاج الى دراسة دقيقة واعية اذ انه يحمل من الدلالات ما يمكن ان يكون عاملا قوياً في فهم فلسفة الفنان او فهم الظروف التي خرجت فيها المسرحية ، فمن المعروف ان اختيار الاسطورة لايمكن ان يكون طبيعياً من فنان الف مواجهة الواقع مواجهة مباشرة ، ولا يمكن ان نفسر اتخاذ الاسطورة مادة للمسرحية الا باحد فروض ثلاثة . اولها ان تكون شخصية الفنان بطبيعتها هروبية لا تستطيع اصلا ان توجه الواقع بشكل مباشر ، فتحمل عالما مخلوقا وخيالياً ما يتحمله عالم موجود ، وهذا ما ارى انه الفرض المطابق لشخصية توفيق الحكيم ، والفرض الثاني هو ان لا تسمح الظروف التي ظهرت فيها المسرحية بمواجهتها المباشرة للواقع ، مثل الظروف التي عاش فيها سارتر ايام حركة المقاومة في فرنسا واخرج خلالها مسرحية (الذباب) . فقد كانت هذه الظروف ضمن العوامل التي تفسر خروج المسرحية في اطارها الاسطوري . والفرض الثالث هو ان تكون المشكلة التي تعالجها المسرحية مشكلة متيافيزيقية ومن هذا اللون الذي يحققه الغرض الاخير، المسرحيات المختلفة التي عالجت مشكلة (اوديب) او مشكلة الانسان بين ارادته وارادة القدر.

وفي باب النشاط الثقافي في مصر قرأت ملخصاً لمقال كتبه الاستاذ محمود العالم عن اهل الكهف ايضاً . والفرق بين هذا المقال وبين بحث الاستاذ فاضل

هو الفرق بين الاصالة الواعية والتسرع غير الواعي . فتفسير الاستاذ العالم للمسرحية تفسير سليم وممتاز ، اما وصفه لها بأنها من الادب الرجعي (الذي وان عكس جانباً من الحياة المصرية ، إلا انه لا يشارك في حركتها الصاعدة بل يقبع عند علاقاتها وقواها الخائرة المهزومة) فهو حكم لا اوافقه عليه.

إن المسرحية تؤدي دورها التقدمي حين تضعنا – لأول مرة في تاريخ المسرح المصري – أمام مشاكلنا وتدفعنا إلى الاحساس بها، هذا الاحساس الذي يعتبر دفعة قوية لنا في طريق الانتصار على أوضاعنا . والفرد المصري هو الانسان الذى صوره توفيق الحكيم والذي لا تربطه بالحياة في الغالب إلا علاقات جزئية إلى أبعد الحدود . ولنأخذ تجربة تاريخية لها خطرها بالنسبة « لأهل الكهف » من جانب وبالنسبة لحياتنا من جانب آخر ، هذه التجربة هي ثورة سنة ١٩١٩ التي كانت حركة رفض وتمرد على اوضاع كانت تسيء إلى حياتنا . وقد عاش توفيق الحكيم مع المصريين في هذه التجربة بأكملها، وأعتقد أنها كانت ذات اثر فعال في خلق مسرحية « أهل الكهف » . ولننظر بعد ذلك في غير تفصيل إلى مضمون هذه الثورة، فقد كان وقودها الملتهب العنيف طبقة من الشباب، هي نفسها التي خلقت في الحياة المصرية تياراً هائلاً من الرجعية والانهزامية ، كنتيجة مباشرة للارتباط بالقضايا الجزئية والعلاقات الفردية حينما استولت على الحكم ، وأشرفت على خلق « الثقافة السياسية » في المجتمع المصري – وإذا اردنا ان نغير واقعنا ففهمنا له وإحساسنا به هما اول خطوة في هذا الطريق .

وكان من نصيب قصة « الحي اللاتيني » للدكتور سهيل ادريس بحثان أحدهما للاستاذ يوسف الشاروني والآخر للاستاذ احمد كمال زكي . اما بحث الاستاذ الشاروني فهو محاولة طيبة لتفسير المواقف والشخصيات في « الحي اللاتيني » استفاد فيها من خبرته بمشاكل علم النفس ، وتمثله للواقع القصصي على ضوء تلك الخبرة . وقد قرأت له في مجلة «علم النفس» المصرية بحثاً عن قصة « السراب » لنجيب محفوظ قام فيه بمثل هذه المحاولة . وأدبنا العربي في حاجة الى هذا اللون من الفهم ، ولكن من الضروري ان نقول إنه يفقد عنصرين رئيسيين من عناصر الموقف النقدي إزاء عمل فني ما. أما العنصر الأول فهو « التقييم الأدبي » للعمل ، بوضعه في مكانه بالنسبه لغيره من الاعمال الفنية المشابهة، ورصد ما تركه وما سيتركه من اثر في مجاله الفني، وكذلك ما احتواه من خبرات فنية استمدها من قراءاته السابقة ، ثم التعرض لبناء القصة وما فيه من مقومات النجاح أو مبررات الفشل. وهذا ما لم يتعرض له الاستاذ الشاروني إلا في حكم واحد نسجله له بالتقدير بعد ان نسجل انه كان يتطلب تفصيلاً اكثر ، وذلك حين يقول « إن عدم تدخل الصدفة في هذه الرواية هو عامل من عوامل تماسكها الحقيقي » . والعنصر الثاني هو « التقييم الانساني » للعمل الفني سواء في مواقفه او شخصياته ، وهذا لا يعني فحسب ما قام به الاستاذ الشاروني في تفسيره للشخصيات والمواقف من الربط بينها وبين مشاكل المجتمع ، وتحويل النماذج إلى دلالات سيكلوجية لهذه المشاكل ، بل يعني على التحديد رصد ما تتركه القصة من اثر انفعالي في الناقد كإنسان. ففي «الحي اللاتيني» مثلاً مواقف وشخصيات لا يمكن تفسيرها سيكلوجياً . ولنأخذ نموذجاً لذلك في الفصل العاشر من القسم الثاني من القصة :

جانين تضيق ببعض الحقائق التي تفزعها ، فتذهب مع بطل القصة الى (الكوبول) وتشرب كثيراً حتى تصل الى حالة من السكر الشديد ، ثم تخرج مع البطل الى الطريق حيث يبلغ حديثها الصادر من اللاوعي عن ذكرياتها ومخاوفها من المستقبل حداً من الحرارة الشديدة والامتلاء بالسخرية والدموع ... واحرجته من شدة سكرها في الطريق فصفعها صفعتين « ولبث ينظر اليها وقد اخذت تمر يدها ببطء على خدها ، وان هي الا لحظة حتى انقصفت على وسطها ثم اذا بها تقيء قيئاً كثيراً في جانب الشارع . واحس برشاش القيء على وجهه» ، « ولم ينم تلك الليلة الا غراراً – وفي اثناء سهاده كانت تفغم انفه لحظة بعد لحظة ، رائحة عطر ينسحب على ذيل ثوب انيق اسود ، يتخطر به جسم ممشوق في شارع الاوبرا وما تلبث ان تختلط بهذا العطر رائحة قيء قذفته من جوفها فتاة كانت تتشبث بذراعه في شارع مونبارناس .»

هذا الموقف بما فيه من تعبير صادق عن موقف الانسان غريباً ضائعاً إزاء تناقض واقعه بين الارادة والزمن الذي يحتوي المستقبل الى جانب الحاضر ... يحتوي النهاية دائماً ، هذا الموقف وغيره من المواقف في (الحي اللاتيني) لا يمكن تفسيرها تفسيراً سيكلوجياً ، وتكون بهذا التفسير قد اعطيناها كل قيمتها واحقيتها من فهمنا وإحساسنا . ويمكن ان نقول ذلك عن بعض شخصيات القصة مثل الخادمة الفرنسية (تيريز) ، والمشاكل التي يعيش فيها بطل القصة من صراع مع التقاليد وهروب من اوضاع ونزوع نحو اوضاع اخرى تتلاءم مع تطوره وفهمه للحياة ، الذي تضمن عناصر جديدة بعد زيادة تجاربه ، كل هذه المشاكل يحتويها الصراع الذي يعيش فيه البطل من اجل حريته ، ومشكلة الحرية هذه هي مشكلة انسانية تتضمن الجانب السيكلوجي ولكنها لا تنحصر فيه ، فالاقتصار على التفسير الأخير لا يمكن ان ينصف القصة .

وعلى العكس من مقال الاستاذ الشاروني بما فيه من محاولة تفسيرية ممتازة تقتصر على جانب تخصص فيه الكاتب ، نجد مقال الاستاذ زكي وقد بُني على افتراضات علمية لم يناقشها الكاتب ليعرف نصيبها من الخطأ والصواب كافتراض أن « عقدة

أوديب هي الحالة التي يعيش فيها بطل القصة والتي ترسم له خط اتجاهه النفسي في الحياة . وقد كان على الاستاذ زكي ان يبرر لنا تسليمه بوجود هذه الحالة الانسانية التي سماها « فرويد » بعقدة أوديب . وخصوصاً وقد خرج بعد فرويد علماء رفضوا اتجاهه في التفسير السيكلوجي للحياة الانسانية ، وعلى رأسهم تلميذه « أدلر » ومحاولات أدلر وغيره محاولات علمية لها خطرها ، فينبغي ان يقام لها وزن قبل التسليم بوجود عقدة أوديب او غيرها مما تحدث عنه فرويد في دراساته .

على انني ارفض هذا التفسير لعلاقة بطل القصة بامه، فالمسألة في رأيي تفسرها طبقة بطل القصة . فمن الحقائق التي يمكن ان نستخلصها من « الحي اللاتيني » ان البطل «بورجوازي» أصيل، ومن الصفات الظاهرة لهذه الطبقة الحرص الشديد على التقاليد والرسميات في العلاقات الانسانية داخل بناء الاسرة ، وخارج هذا البناء . فاحترام الصغير للكبير والمركز المعنوي للأم والأب وغير ذلك ، تقاليد بارزة تترك اثرها في التكوين النفسي للافراد ، ولو ان بطل القصة كان من طبقة اخرى لكان الموقف قد تغير حتما .

ولا اوافق الاستاذ زكي كذلك على تفسيره لشخصية (جانين) بطلة القصة بانها « اللاشيء امام اي شيء » وبانها شخصية مصابة بمرض « لا تعرفه ولا يعرفه الكاتب ولا يستطيع القارىء ان يعرفه» فشخصية جانين لاتتفق مع هذا التفسير ، والحقيقة انها « فتاة قد انتصرت على عقدها واخذت تمارس حرية التدخل في وجودها واختيار اوضاعها المختلفة ؛ فهي بهذا المعنى تعيش انسانيتها كاملة ولا تستمد معنى وجودها من ظرف خارجي كالالتقاء برجل تفقد امامه كل شيء ، مكتفية بوجود آخر هو وجود الرجل الذي التقت به . فجانين (اختارت) ان تترك خطيبها حينما رفضت موقفه الزائف من الحياة ، والذي يختلف عن موقفها الصريح الواضح ... تركت خطيبها بعد ان اكتشفت خيانته لها قبل الزواج باسبوع ، وتلتقي بعد ذلك ببطل الحي اللاتيني وتحبه حباً كبيراً هائلا ، ولكنها مع ذلك تقرر حين يتخلى عنها امام الضغط الذي لقيه من واقع حياته في بيروت من جانب ، والنزوع الذي كان يحس به نحو تغليب قضية بلاده على اية قضية اخرى . فيتنكر لما كان بينهما من علاقة ، تقرر (ان تواجه مصيرها في شجاعة)...وتواجهه بالفعل في شجاعة وبعد ان دمرتها مواجهتها الحرة لمصيرها وقادتها الى حي (سان جرمان دي بريه) كائنة بلا غد . ويمكنها بطل القصة من تغيير وضعها الذي اختارته ، فيعرض عليها ان تتزوج به ، ولكنها ترفض ذلك اخيراً ، لأنها ترى مرة ثانية ان هناك اختلافاً بين وضعها في الحياة ووضع بطل القصة»(١) فهي على هذا نموذج وجودي يعيش اللذة والالم باختياره... وهي دائماً شيء امام اي شيء ، وان جاز انها غير واضحة بالنسبة لمؤلف القصة ، فهي واضحة تماماً بالنسبة لنفسها وبالنسبة للقارىء .

وهناك احكام سريعة اخرى يلقي بها الاستاذ زكي كقوله:

« إن الحي اللاتيني أروع بناء في الرواية العربية » والكاتب يلقي بهذا الحكم في الجمل الأخيرة من مقاله ثم يمضي دون ان يقدم الأدلة عليه وكأنه لا يتحمل مسئوليته. وكذلك يتنبه الاستاذ زكي إلى « أن الضمائر الثلاثة تتداول لغة الكاتب » ثم يحكم على هذه الظاهرة ! الممتازة التي حققت لنا اسلوباً جديداً في كتابة القصة العربية بانها « خروج على الأسلوب العربي المتواضع عليه» وهذا الحكم صحيح ولكن وضعه في صورة « مأخذ » دون اقترانه بما يبرره هو ما نسجله على الاستاذ زكي و «نأخذه»عليه.

أما بحث الاستاذ توفيق سكر عن مشكلات الموسيقى العربية فقد كان بحثاً واضحاً ممتازاً تمثل فيه الكاتب الوضع الحقيقي للموسيقى العربية وتمكن من عرض موقفه بوضوح إزاء هذا الوضع مما يمكن أن يستفيد منه المتخصصون .

القصص :

قصة « المدينة القديمة » * او « الولاء » لاهرنبرج تمثل في رأينا نموذجاً صادقاً لمضمون القصة الروسية المعاصرة، على تفاوت بين القصاصين في مستواهم الفني . ومما لا شك فيه ان اهرنبرج يقف على رأس الفنانين الروس المعاصرين ذوي الامكانيات القصصية الممتازة ، وهو في هذه القصة بالذات يُعنى عناية قيمة « بالموقف » ويوفق في إعطائنا صورة لنماذجه من خلال المواقف التي تتحرك فيها داخل القصة . وما نأخذه على هذه القصة هو ما نأخذه على القصة الروسية المعاصرة بوجه عام ، وهو « القصد » واستمداد التجربة الانسانية في الفن من« نظرية ذهنية » بشكل غير تلقائي. ولنأخذ مثلاً المشكلة الانسانية التي يعبر عنها اهرنبرج في قصته، وهي موقف الانسان ازاء الحرب ومعاناته لتجربتها. لقد تعرّض لها ستيفان زفايج في قصته «الفارّ» وهي قصة فلاح روسي جُنّد دون ان يفهم المبرر الذي يسوقه الى الحرب او الى قتل الآخرين، وتعرّض لها كافكا في قصته القصيرة « طبيب القرية » حيث كان نموذجها الرئيسي يمثل إنساناً غريباً إزاء العالم يسير بلا ارادة ويُفرض عليه ما يخرج عن حدود امكانياته

(١) من مقالنا عن « الحي اللاتيني » والذي لم ينشر بعد .

(١) هنا يتضح تأثر سهيل ادريس بسارتر مما سنتعرض له في مقالنا عن الحي اللاتيني .

* **تعقيب** : ترى « الآداب » من الضروري ان تشير هنا الى ان هذه القصة التي نشرت في العدد الماضي انما ترجمها الاستاذ رجاء النقاش نفسه ليستشهد بها رداً على ملاحظة سبق ان اوردها الاستاذ منير البعلبكي حول النتاج الروسي الحديث في مقال نشر في العدد الثاني عشر من السنة الاولى – باب « قرأت العدد الماضي من الآداب » . « الآداب »

كإنسان أو يتناقض معها، وينزع منه ما هو في حاجة اليه دون سلاح يدافع به عن هذا الشيء المنزوع منه ، ويعيش في واقع « لا يحميه من صقيع هذا العالم التعيس » ، فهو ضائع الحرية مسلوب الانسانية . وعبرت عنها القصاصة النمسوية « ماري سكافنر » في قصتها القصيرة « ابنته » حيث كانت تقدم لنا نموذج طفلة فقدت والديها اثناء الحرب ، وفي بساطة وبراءة عميقتين تشعرنا الفنانة النمسوية بالمأساة خلال احداث انسانية عميقة المضمون.

في هذه القصص كلها والتي كتبها معاصرون لاهرنبرج نشعر بوجود فن تشغله قضايا الانسان المجرد ، لا الانسان من خلال نظرية ما ، أو بيئة واحدة . فالحرب تجربة يعانيها الروس كما يعانيها الألمان . وبالنظر إلى حصاد تجربة الحرب العالمية الثانية بالذات ، والتي صدرت خلالها قصة اهرنبرج ، نجد أن ما عاناه الروس لا يداني ما عاش فيه الألمان من تجارب قاسية مريرة . وبهذا المقياس ماذا يمكن ان يكون شعورنا نحو قضية الانسان الروسي ؟.. إنني لن أتجاوب مع اي فن يدافع عن الانسان الروسي ويحط من الانسان الألماني ما لم اكن مؤمناً بالشيوعية كنظرية، أما إذا جعلت وجهة نظري إنسانية خالصة، فسيكون الألماني أحق من غيره بدفاع الفن كله ... ولكن هذا المنطق في جملته خاطيء، خاطيء لأنه يقسم الانسان من وجهة النظر الفنية إلى بيئاته، ويحول الفن ذاته في غير تلقائية إلى نظريات سياسية . وهذا ما فعله اهرنبرج حين اخذ يشرح فهم الشيوعيين للتاريخ في قصته ، وأخذ يتحدث عن روسيا حديثاً شبيهاً « بالأناشيد القومية » المعروفة . وازن هذا كله بالدفاع التلقائي عن الانسان في القصص التي ذكرناها ، او بالدفاع التلقائي عن الانسان الروسي بالذات في قصة شيكوف « قصة مؤلف مجهول an anonymous story ». إن قصة اهرنبرج تخلو من كل مضمون إنساني كبير، وهذا الحكم ينطبق على الفن الروسي المعاصر الذي مازال مرتبطاً في غير تلقائية بالنظرية . [1]

أما قصة « لاجئة » فقد وفق فيها الدكتور بديع حقي الى خلق الشعور بالمشكلة ، وإعطاء بطلة القصة من الحياة ما يشعرنا بوجودها وبما تعانيه من أوضاع تسعى للتخلص منها بحلول منحرفة كالاستعانة « بالشيخ عثمان » حيث تتحول هذه الحلول ذاتها الى وضع يحس القارىء بالضرورة التي تتطلب تغييره والانتصار عليه .

اما قصة « شلن » للاستاذ احمد كمال زكي فافتعال المواقف والاحداث فيها ظاهرة الى حد بعيد . اما الشخصيات وعلى رأسها البطل فتتثاءب دون ان تشعرنا بوجودها او بمشاكلها إلا اذا تدخل الكاتب نفسه بالشرح والتفسير ، وفي القصة تجد عنصر التداعي غير الحر كالربط (المفتعل المقصود) بين دخان القطار ودخان السيجارة ، او ان يقول الكاتب عن البطل عندما رأى دكان الجزار (وصور له الوهم (طبلية) تنوء بصينية البطاطس والضلع المحمر... كلا فهو يحبه مشويا، ولكن لا ضير اذا جاء محمراً، اما لو كان مسلوقاً فلن يطيب له الأ في العيد ... الخ) او ان يقول في جزء آخر (اكان من الممكن ان يكون في الشلن اكثر من خمسة قروش ؟ لماذا لم يجعلوه عشرة مثلا او تسعة او حتى ستة ؟) مما لا يمكن ان يخطر على بال البطل بهذه الصورة . وقد كان من اثر هذا التداعي غير الحر ان نزع من نفس القارىء كل عطف على شخصيات القصة او مشاكلها امام احساسه بانها شخصيات ومشاكل مفتعلة ، بالاضافة الى ان النماذج لم تكن تحمل مضموناً انسانياً يستحق هذا العطف ، فزوجة الموظف شرسة والولد الصغير يأكل ضعف الكبير ، والشخصية الرئيسية تدفع ثمن « البيبسي » ليرد لها في تذكرة بالترام، وهي الى جانب هذا «مكتومة» لا تنفعل بمشاكلها انفعالاً يستغرقها ، ففي اللحظة التي تحاصر فيها بالمشاكل وهي لحظة يكون الانسان خلالها مسلوب الوعي بالعالم الخارجي نجد البطل متنبهاً لهذا العالم بأكمله ، فهو يحدث بائع اليانصيب ويلتفت للكلب الذي يأكل بقية عظام اختطفها من الجزار، فيوحي هذا الكلب اليه بحل للمشكلة . وعنصر المصادفة يتدخل في القصة باستمرار ، وهو نفسه الذي يحل المشكلة ، وحل المشكلة بهذا العنصر هروب منها وعدم معاناة شعورية لها ، فاما ان تحل المشكلة في القصة حلاً يمكن ان نسميه « بالاقتراح » يقدمه الفنان للمجتمع ، او ان ينبه اليها ويتركها حتى يحس المجتمع ان المشكلة ما زالت باقية تطلب الحل – فلو لم يتنبه البطل الى الكلب ماذا كان يحدث ؟ هل هذا الحل الذي وصل اليه الكاتب في نهاية القصة حل للمشكلة التي تعيش فيها طبقته...طبقة البورجوازية الصغيرة ؟... ان المشكلة باقية تعيش فيها طبقة بأكملها من طبقات المجتمع بالرغم من الحل الذي توصل اليه الاستاذ زكي .

القصائد :

ويتجه الشعر كله اتجاهاً واحداً في التعبير عن مشاكلنا وتجاربنا الاجتماعية ، ويتفاوت بعد ذلك في علاقته بالشكل وعلاقته بالمضمون. فقصيدة الاستاذ بدر شاكر السياب تتخذ من الشعر الحر شكلها المختار في عرض التجربة التي عاشها ، وتقترب منها قصيدة « مشردون » لمحمد العربي صمادح ، بينما تلتزم القصائد الأخرى الشكل الكلاسيكي، رغم خروج بعضها على القافية الواحدة. اما من ناحية المضمون فتجد التعبير الرمزي الذي يتسم بالبساطة في قصيدة بدر شاكر السياب ، والتعبير المباشر عن موقف الفرد العربي إزاء مشكلة الاستعمار، كما يتضح ذلك في قصيدة كمال نشأت « ودعت ابي » أو إزاء وضعه الداخلي في مجتمعه، كما في قصيدة «الأرض التي وزعها المذياع» لسليمان العيسى

(١) لا يزال هذا الموضوع في حاجة الى تفصيل ، وسنعود اليه مرة اخرى لأن هناك عناصر متعددة في هذه المشكلة ينبغي التعرض لها .

ثم التعبير المباشر عن موقف هذا الفرد إزاء وجـوده المجرد كما في قصيدة « اعماق مزيفة » لسعد دعبيس .

ومما لا شك فيه ان المستوى العـــام للشعر لا يخرج عن المستوى العادي ، ويرجع ذلك الى ان تعبير الشعراء عن هـذه التجربة ليس تعبيراً تلقائياً ، بل مدفوع من الخارج بتيار الدعوة الى مشاركة الفن في التعبير عن مشاكلنا . فقصيدة بدر شاكر السياب تتميز بالشكل الذي كتبت فيه اكثر من تميزهـــا بالاحساس القوي بتجربة ما . وقصيدة كمال نشأت انحراف من الشاعر عن طبيعته فهو شاعر رمزي يجنح الى الجو الرومانسي ، فلم يكن من الطبيعي ان يعبر عن تجربة وطنية من خـــلال علاقة جندي بوالده فهو لا يحس هذه التجربة من جانب ، وهو من جانب آخر ينحرف انحرافاً حقيقياً عن طبيعتـه كشاعر رومانسي قد يتطور ، ولكن في دائرة الجو الرومانسي ايضاً . فقصيدته بالعدد الماضي لا توفق في عرض تجربة ما ، ولولا ما فيها من تناسق نغمي واستدعاء جميل لذكريات سابقة ، لخلت من كل المقومات التي يمتاز بها شعره . وكان من الممكن لقصيدتي سعد دعبيس وسليمان العيسى ان تصلا الى مستوى شعري رفيع لولا موقفها الخطابي من التجربة . امـا قصيدة قيصر والحرية فهي قصيدة مدرسية مفتعلة لا تحمل اية قيمة فنيـة ولا تشعرنا بمشكلة إنسانية ما . اما قصيدة « النافذة المغلقة » لابراهـــيم نجا فالانفعال فيها ينمو في بطء ورتابة ، والبناء الفني للقصيدة اشبـه بالنظم منه بالشعر . وقصيدة المشردون لمحمد العربي صمـــادح تتميز في بعض اجزائها بالانفعال الحـار الصادق ، وإن كانت لا تخلو من هبوط فني في بعض الأبيات ، وقريب من مستواهـا قصيدة « صار لحداً مراراً » لعدنان الراوي .

القاهرة — **رجاء النقاش**

محروم :

— يقدّم —

وحي الحرمان

مجموعة شعرية تعود بالجزيرة العربية

الى مكانتها العالية في دنيـا الشعر

يرصد ريعه لجمعية اهل القلم

هل اقتنيت نسختك من :

الحيّ اللاتينيّ

إنها قصّتك انت ، قصة قلقك وحرمانك

وبحثك عن معنى حياتك .

بقلم الدكتور

سهيل ادريس

الطبعة الأولى على وشك النفـــاد

دار العلم للملايين

بيروت